



اثر نساء البيت الحفصي في الحياة السياسية (626-981هـ / 1229-1571م)

م . د . نهى احمد محمد

جامعة الموصل / كلية الآداب / قسم التاريخ

nuhaalbadrani73@uomosul.edu.iq

أ . م . د . صالح احمد صالح

جامعة الموصل / كلية الآداب / قسم التاريخ

saleh.a.s@uomosul.edu.iq

ستظل الدراسات التاريخية عن حياة المرأة في أي دولة على درجة كبيرة من الأهمية والصعوبة في آن واحد كون المرأة تشكل اللبنة الرئيسية في المجتمع الإنساني على مر العصور وإيماناً منا بأهمية دورها في تاريخنا الإسلامي عامة وتاريخ المغرب الإسلامي خاصة فقد ارتأينا ان نتناول تاريخ نساء البيت الحفصي بشيء من التعمق والدقة ، سيما ان الدولة الحفصية التي حكمت لأكثر من ثلاثة قرون عانت التهميش والسوء من قبل المؤرخين في الجانب السياسي . لعلنا نجد من خلال بحثنا في تاريخ هذا البيت ما نجد فيه الإجابة عن عدة تساؤلات عن سبب اغفال المؤرخين المتعمد او غير المتعمد للحديث عن النساء ودورهن فهل يعود ذلك الى سياسة الدول آنذاك التي ترفض مشاركة النساء في الجوانب السياسية ، او لعل ذلك يعود الى الرغبة في حمايتهن والمحافظة عليهن من التعرض للأذى وفقاً للشريعة الإسلامية كل تلك التساؤلات سنحاول الإجابة عنها وكشفها في جنبات هذا البحث .

الكلمات المفتاحية : عطف ، جوهرة ، ريم ، فاطمة ، عزونة .

The Impact of women from the Hafsids dynasty in political life (626-981 AH / 1229-1571 AD)

Dr. Nuha Ahmed Mohammed

University of Mosul / College of Arts / Department of History

nuhaalbadrani73@uomosul.edu.iq

Assistant Professor Dr. Saleh Ahmed Saleh

University of Mosul / College of Arts / Department of History

Historical studies of women's lives in any country will remain both highly important and challenging, given that women constitute the fundamental building block of human society throughout the ages. Believing in the importance of their role in our Islamic history in general and the history of the Islamic Maghreb in particular, we have decided to address the history of the women of the Hafsids dynasty with some depth and precision, especially since the Hafsids dynasty, which ruled for more than three centuries, suffered from marginalization and neglect by historians in the political sphere. Perhaps through our research into the history of this dynasty, we will find answers to several questions about the reason for historians' deliberate or unintentional neglect of women and their role. Is this due to the policies of the states at the time that rejected women's participation in political aspects, or perhaps it is due to a desire to protect them and preserve them from harm in accordance with Islamic law? We will attempt to answer and reveal all of these questions in this research.

Keywords: Atf, Jawhara, Reem, Fatima, Azounah.



المقدمة

تعد دراسة الجوانب التي تتعلق بدور المرأة من المواضيع الصعبة في الدراسات التاريخية نظراً لقلّة الكتابات عنها لدى المؤرخين سواء القدماء منهم أو المحدثين ، وعلى كافة الأصعدة السياسية أو الحضارية ، ونخص بالذكر منها الحياة السياسية سيما في التاريخ الإسلامي ولعل ذلك يعود الى التعتيم الذي اعتمدته المؤرخون في الحديث عنها من باب المحافظة عليها وحمايتها من الإساءة التي قد تتعرض لها في حال كتب عنها من قبل أعداء الإسلام ، وما تقدم ينطبق على الدول المشهورة تاريخياً كالدولة العباسية ومن قبلها الاموية ومن لحقهما فكيف الحال بدور النساء في دولة تعاني التهميش التاريخي كالدولة الحفصية (626-981هـ / 1229-1571م) في مجمل تاريخها فلنا ان نتخيل الشحة عن دور النساء في اخبارها سيما أن المصادر التي تتكلم عن هذه الدولة تكاد تكون معدومة ، ومن هنا وقع اختيارنا على دراسة دورها السياسي حتى وان كان بسيطاً مقتضباً بمعناه كشذرات من ذهب وجدناها بين طيات بعض المصادر لنقدمها للقارئ ايماناً منا بعظم دور النساء في تاريخنا الإسلامي عموماً واختارنا منهن دور نساء الخاصة (القصور وربات الخدور) أي نساء الاسرة الحاكمة الحفصية تحديداً فجاء عنوان البحث (اثر نساء البيت الحفصي في الحياة السياسية) ، حيث وجدنا من المفيد البحث عن اثر نساء البيت الحفصي في الجنب السياسي خلال تاريخ تلك الدولة التي امتدت لأكثر من ثلاثة قرون ونصف وهل كان لأصولهن دور في الجنب السياسي سيما ان اغلب أمهات الامراء والسلاطين الحفصيين كانوا (أمهات ولد) فأردنا ان نسلط الضوء على دورهن السياسي .

وقد تناولنا الموضوع في مدخل ومحورين تحدثنا في المدخل بشكل مختصر عن الدولة الحفصية حيث وجدنا من المفيد ان يتعرف القارئ عن لمحة سريعة عن أوضاعها العامة .
اما المحور الأول فقد كان مخصص للحديث عن أصول نساء البيت الحفصي واثر تلك الأصول في الجنب السياسي سيما ان العهد الحفصي بدأ بالجدات البربريات الحرات وانتهى بأمهات الولد.
في حين جاء المحور الثاني لتركز فيه الحديث عن دور المصاهرات السياسية التي عقدتها الدولة الحفصية مع غيرها في إحلال الامن والاستقرار السياسي وهو امر كانت تلجأ له في أوقات الازمات والضعف .
ثم جاءت الخاتمة لعرض فيها اهم النتائج التي افرزها هذا البحث .
وفي الختام نرجو ان وفقنا بعرض هذا الموضوع بشيء من الموضوعية والوضوح والله من وراء القصد .

مدخل

يعد الأمير أبو زكريا يحيى ابن الشيخ أبو محمد عبد الواحد الحفصي (626-647هـ / 1229-1249م) المؤسس الحقيقي للدولة الحفصية (626-981هـ / 1229-1571م) ⁽¹⁾ والتي اشتهت اسمها من جد الحفصيين الأول الشيخ أبو حفص عمر ابن يحيى الهنتاتي المتوفى (571هـ / 1175م) ⁽²⁾ والذي لعب دوراً كبيراً في قيام دولة الموحدين (541-668هـ /) وقدم خدمات جليلة لأمرائها حتى استحق وابناءه واحفاده مكانة متميزة في الدولة الموحدية مكنتهم من تولي ارفع المناصب فيها كان أهمها حكم افريقية (تونس الان) كولاية ونواب عن الموحدين ⁽³⁾، حتى تمكن الأمير أبو زكريا من الاستقلال في افريقية معلناً

(1) ابن قنفذ القسنطيني ، الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية، 30؛ الزركشي، تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، 30؛ برونشفيك، تاريخ افريقية في العهد الحفصي، 50/1 .

(2) المراكشي، المعجب في تلخيص اخبار المغرب، 192؛ ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر، 328/6.

(3) تولى افريقية من الأمراء الحفصيين ثلاثة هم كل من الشيخ أبو سعيد عثمان بن ابي حفص والشيخ أبو محمد عبد الواحد بن ابي حفص ثم أبو زيد عبد الرحمن ابن ابي محمد عبد الواحد. للمزيد عن تلك الولاية ينظر: ابن خلدون، العبر، 282/6-292؛ ابن قنفذ، الفارسية، 103؛ الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، 189/2؛ عنان، عصر المرابطين والموحدين، 273/2.



قيام الدولة الحفصية (626هـ / 1229م) ⁽¹⁾ والتي سيقدر لها ان تحكم افريقية عسراً امتد لأكثر من ثلاثة قرون ونصف، وتعاقب على حكمها 24 امير وسلطان ⁽²⁾ تأرجحت أوضاعها بين القوة والعظمة في عصرها الأول عصر التأسيس الى الضعف والتدهور ثم التعافي شيئاً يسيراً واخيراً الى السقوط بشكل تام في عهد اخر امرائها المدعو مولاي محمد ابن الحسن (977-981هـ / 1567-1571م) ⁽³⁾، وامام هذا العرض السريع والموجد عن تاريخ الدولة الحفصية نحاول ان نبحث عن دور نساء البيت الحفصي الحاكم طيلة تلك العقود والقرون الطويلة فهل لعبن دوراً سياسياً مباشراً؟ ام غير مباشر؟ وهل كن مؤثرات على الساحة السياسية؟ وهنا يجب ان نذكر امراً مهماً يتعلق بنساء المغرب عموماً ونساء تلك الدولة خصوصاً اننا لم نجد طوال تاريخنا الإسلامي امرأة مغربية واحدة جلست على كرسي الحكم وانما كن يمارسن دوراً سياسياً غير مباشر او كما يقال من وراء حجب. ولفهم دورهن بشكل دقيق علينا دراستهن حسب الأصول والاعراق ومدى تأثير ذلك على حياتهن ودورهن السياسي.

المحور الأول : أصول نساء البيت الحفصي واثره السياسي على الدولة

احتوت القصور الملكية عبر العصور وليس في المغرب الإسلامي فقط وانما نستطيع القول في جميع الأنظمة الحاكمة في العالم قديماً وحديثاً على نساء من اجناس وطبقات مختلفة منهن الحرائر ومنهن الجواري والخدم ولما كانت دراستنا عن دور نساء البيت الحفصي في الحياة السياسية فعلى ان نلقي الضوء على أصول تلك النساء بشيء من التفصيل لأنه في الغالب كانت تتمتع بعض النساء بمكانة متميزة دون غيرها سواء كانت من الحرائر او الجواري. ولكي نفهم اثر نساء البيت الحفصي بشكل واضح علينا ان نتطرق على اصولهن بشكل دقيق كما ذكرته المصادر لما لتلك الأصول من دور بارز في رسم سياسية الدولة.

أولاً : الحرات

نجد من خلال بحثنا في هذا الموضوع ان جد الاسرة الحفصية الشيخ أبو حفص عمر ابن يحيى ⁽⁴⁾ الذي يعد من اقدم أصحاب المهدي (محمد بن تومرت) (ت. 524هـ / 1130م) ⁽⁵⁾ ومن اكثر المخلصين لدعوة الموحدين ولاسيما في عهد الخليفة عبد المؤمن بن علي الكومي (524-558هـ / 1130-1163م) حيث اصبح الرجل الأول بعد الخليفة فحمل هو وابناءه من بعده لقب الشيخ ⁽⁶⁾ في حين حمل عبد المؤمن وابناءه لقب السيد ⁽⁷⁾.

لقد كان للشيخ أبو حفص دوراً في حمل قبيلته هنتاتة وبقية قبائل المصامدة على بيعة المهدي وكان يتمتع بمكانة متميزة لدى ابن تومرت فكان يكلفه بحمل ترسه ⁽⁸⁾ واطلق عليه لقب المبارك ⁽⁹⁾ وقد انعكست هذه

(1) ابن خلدون، العبر، 236/6؛ ابن قنفذ، الفارسية، 107؛ الزاوي، تاريخ الفتح العربي في ليبيا، 334.

(2) للاطلاع على تاريخ الدولة الحفصية بالكامل وفق التسلسل الزمني لأمرائها ينظر: ابن ابي الضياف، اتحاف اهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، 152/1-189؛ الباجي المسعودي، الخلاصة النقية في امراء افريقية، 56-90.

(3) وقع مولاي محمد بن الحسن اسيراً بيد الاتراك العثمانيين فنقله سنان باشا الى إسطنبول حيث سجن في قلعة دقلة حتى توفي وبوفاته انقرضت الدولة الحفصية. الباجي المسعودي، الخلاصة النقية، 90.

(4) الزركشي تاريخ الدولتين، 8؛ ابن الشماخ، الأدلة البيئية النورانية في مبادئ الدولة الحفصية، 23.

(5) برونشفيك، تاريخ افريقية في العهد الحفصي، 43/1.

(6) ابن قنفذ، الفارسية، 100.

(7) ابن الشماخ، الأدلة البيئية، 23.

(8) البيذق، اخبار المهدي محمد بن تومرت، 32.

(9) ابن الشماخ، الأدلة البيئية، 32.



المكانة على المهام التي انيطت بهذا الشيخ فقد كان يعهد اليه بقيادة قبيلته في المعارك والحملات العسكرية وهو الوحيد الذي تميز بهذه المكانة، كذلك كان له دور فاعل في بيعة الخليفة عبد المؤمن ابن علي⁽¹⁾ السالف الذكر الذي يعتبر المؤسس الحقيقي لدولة الموحدين ولنا هنا ان نتصور تلك المكانة التي وصل اليها ذلك الشيخ الجليل المخلص اخلاصاً منقطع النظير لدولة الموحدين ومبادئها ومنهجها ولم ينسئ عبد المؤمن هذه الدور الكبير للشيخ الذي لعبه في بيعته فما كان منه بعد توليه الحكم الا تزويج احدى بناته للشيخ أبو حفص عرفاناً له واعترافاً بالفضل والسابقة، ولم تذكر لنا المصادر أي بنات عبد المؤمن تزوجها الشيخ حيث كان لديه ابنتان ذكرهما ابن ابي زرع عائشة وصفية وقد اثمر هذا الزواج عن انجاب الاميرة الكومية للشيخ ولداً اسماه محمد تربي مع أبناء السادة أبناء عبد المؤمن وكان له مكانة متميزة لديهم⁽²⁾، وقد ارتفعت مكانة الشيخ أبو حفص بعد هذه المصاهرة كثيراً بحيث اصبح الرجل الأول بعد الخليفة تعهد اليه بجلال الأمور سواء في المغرب او الاندلس فضلاً عن كونه المستشار الأول للحكومة الموحدية كما كان يقوم باستقبال السفراء المهمين⁽³⁾، ولعل ذلك يرجع الى ما كان يتمتع به ذلك الشيخ من مؤهلات ومهارات الى جانب اخلاصه الكبير للدولة وحكامها، وقد حافظ الشيخ على تلك المكانة القيمة في الدولة الموحدية حتى بعد وفاة الخليفة عبد المؤمن الذي أوصى أبناء بالشيخ خيراً قبل وفاته، حيث حرص خلفاء عبد المؤمن على ان يتمتع الشيخ بنفس المكانة الرفيعة في الدولة تماماً كما كان في عهد والدهم، ولم تنعكس تلك المعاملة الخاصة على الشيخ أبو حفص فقط بل امتدت الى أبنائه أيضاً، مما جعل المصاهرة بين البيت الكومي الحاكم والبيت الحفصي تتكرر مرة أخرى سيما ان الحفصيين اصبحوا بمثابة رؤساء للوزراء بيدهم اغلب الصلاحيات وعليهم تقع معالجة الاخطار الجسيمة، ويتجلى ذلك واضحاً في حادثة وفاة الشيخ أبو حفص التي كانت بسبب اصابته بمرض الطاعون وهو عائد من مهمة اخماد احد الثورات في قرطبة الى مراكش حيث توفي في سلا ودفن بها (571هـ / 1175م)⁽⁴⁾، والمصاهرة الثانية التي تمت تمت عندما تزوج الشيخ أبو محمد عبد الواحد من ابنت الخليفة المنصور الموحدي (580-595هـ / 1184-1199م)⁽⁵⁾ والحقيقة تقال ان هذا الشيخ تمتع بمكانة فريدة في عهد المنصور وولده الناصر (595-610هـ / 1199-1211م) إذ أدى دوراً سياسياً متميزاً وخطيراً في الدولة الموحدية وفي اكثر بقاعها سخونة واضطراباً الا وهي افريقية، ولعل زواجه بهذه الاميرة الكومية جاء ترسيخاً لتلك المكانة وتقديراً له حيث اصبح الصهر الذائع الصيت حتى ان الخليفة المنصور الموحدي قد أوصى قبل وفاته أبنائه خيراً بهذا الصهر تماماً كما فعل والده عبد المؤمن من قبل مع الشيخ أبو حفص، وبالفعل فقد كان هذا الصهر عند حسن الظن به، فقد تولى حكم افريقية (602-612هـ / 1203-1219م) بكل امانة وإخلاص واستطاع ان يمهّد الأرض لأبنائه من بعده الذين اقاموا على أرضها الدولة الحفصية⁽⁶⁾. وكانت افريقية آنذاك تعاني من كثرة الفوضى والاضطراب فلا بد من ان يتولى شؤونها وإدارتها رجل يمتلك من المؤهلات والكفاءة العسكرية والإدارية ليكون قادراً على ضبط شؤونها فوق اختيار الخليفة الناصر على الشيخ أبو محمد عبد الواحد ليتولى هذه المهمة⁽⁷⁾.

(1) الزركشي، تاريخ الدولتين، 9.

(2) كان للشيخ أبو حفص أبناء كثيرين منهم إبراهيم وإسماعيل ومحمد من ابنة عبد المؤمن ويحيى وعيسى وموسى ويونس وعبد الحق وعثمان واحمد وعبد الواحد والأخير هو الممهد الحقيقي لملك الحفصيين في تونس. المراكشي، المعجب، 337.

(3) ابن ابي زرع، الانيس المطرب بروض القرطاس، 203.

(4) المراكشي، المعجب، 192؛ ابن خلدون، العبر، 328/6.

(5) التجاني، رحلة التجاني، 342.

(6) برونشفيك، تاريخ افريقية في العهد الحفصي، 45/1.

(7) المطوي، السلطنة الحفصية، 85.



وهناك حادثة يرويها التجاني تعكس لنا مكانة الشيخ أبو محمد لدى الخليفة خاصة والدولة عامة كما انها تقدم لنا الكيفية التي تولى بها افريقية فيذكر ان الشيخ رفض اول الامر الولاية على افريقية، لهذا قرر الخليفة ان يجبره عليها بطريقة طريفة عن طريق احد ابناؤه وبمساعدة ابن الشيخ أبو محمد من ابنت الخليفة المنصور بحكاية رواها نبيل مملوك الشيخ أبو محمد قال " بينهما انا قائم على خباء الشيخ اذا بضوء خرج من مضارب الخليفة فإذا بشرذمة من الخدم والفتيان قد قصدوا قباء الشيخ فعرفته بذلك فقال: اذا وصلوا ففتح لهم، فلما وصلوا فتحت لهم فدخل ولد الخليفة الناصر ومعه ولد الشيخ ابي محمد وهو المعروف بالسيد، وكان الناصر قد رباه مع ولده يوسف المستنصر ولي عهده واختصه كولده فوجهه مع ولده يقر بأنه بمنزلة الولد ومعهم سالم الفتى مربى الناصر وفتيان اخرين فقام الشيخ بو محمد عبد الواحد لود الناصر واجلسه معه وقال له ما حاجتك أيها الطالب ... فقال له الفتان كرامته قضاء حاجته فقال عبد الواحد: حاجته مقضية "(1)

" ان مولانا وسيدنا يخلصك بالسلام ويقول لك هذه البلاد هي من اول الامر العزيز مع هؤلاء الثوار في امر عظيم وتحت ليل بهيم وقد وصل اليها سيدنا عبد المؤمن وسيدنا أبو يعقوب ... وما منهم الا من انفق اموالاً وافنى في الحركة اليها رجالاً ... وقد طلبنا في جميع اخوانك السادة واعيان اهل الجامعة من ينوب عنا في هذه البلاد فلم نجد عنك معدلاً ... "(2)

ومن النص السالف الذكر نستنتج عدة أمور :

- (1) ان المصاهرة التي تمت بين البيت الحفصي والبيت الموحي كانت تعكس المكانة السامية التي بلغها شيوخ بنو حفص لدى بنو عبد المؤمن.
- (2) القدر الرفيع الذي وصله الشيخ أبو محمد حتى يزوجه الخليفة المنصور بابنته اخت الخليفة الناصر وقد اثمر هذا الزواج عن ولادة الأمير أبو الحسن (محمد بن عبد الواحد الحفصي) الذي حمل لقب السيد كما سبق ان ذكرنا لأنه تربى مع السادة الموحدين أبناء الخليفة (3).
- (3) نجد من خلال ما تقدم ان بعض جدات الحفصيين كن كوميات الأصل لعبن دوراً سياسياً مهماً في إيصال بنو حفص الى اعلى المراتب في الدولة الموحدية فرفعن قدر ازواجهن الرفيع بالأصل مع مراعاة امتلاكهم إنذاك لصفات عززت من دور تلك المصاهرات وعلى رأسها الكفاءة والإخلاص للدولة الموحدية.

ثانياً: الجواري

ضمت القصور الملكية الحفصية الى جانب الاميرات الحرات جواري وإماء ولاسيما الاندلسيات والتي تحولت بعضهن الى أمهات ولد بعد انجابهن للأمراء، فقد شهدت افريقية قدوم الكثير من المهاجرين الاندلسيين فكان موقعها المناسب وخيراتها الكثيرة محط لأنظارهم الى جانب قربها من الشرق وكونها مركز لعبور الراغبين الى المشرق لأداء فريضة الحج الى جانب عامل المصاهرة الذي برز كثيراً في العهد الحفصي عندما اخذ الامراء الحفصيين بالزواج من الجواري الاسبانيات (4)، والحقيقة ان عادة اقتناء اقتناء الجواري لإنجاب الامراء ليست وليدة العهد الحفصي فنجد ان قصر بلكين بن زيري الصنهاجي (337هـ / 983م) كان يحوي 400 جارية (5)، كذلك اقتنى الامراء الموحدين الجواري واتخذوهن أمهات ولد ولاسيما النصرانيات منهن فقد اتخذ الخليفة يوسف بن عبد المؤمن الموحدي (558-580هـ / 1162-

(1) التجاني، رحلة التجاني، 362.

(2) التجاني، الرحلة، 361؛ المطوي، السلطنة الحفصية، 86.

(3) المطوي، السلطنة الحفصية، 86.

(4) مسعود، احمد مسعود، الأثر الاجتماعي للهجرات الاندلسية الى افريقية الحفصية، 255.

(5) المراكشي، المعجب في تلخيص اخبار المغرب، 386.

1184م) الجارية ساهر ام لأبنة وولي عهده يعقوب بن يوسف (580-595هـ / 1184-1199م) والجارية سر الحسن جارية الأمير يعقوب بن يوسف ام لأبنة عبد الله العادل (621-624هـ / 1224-1227م) ⁽¹⁾. كانت منزلة الجواري متباينة وهن في الغالب على قسمين، القسم الأول والاعلى مرتبة هن أمهات الولد والذين يقع الاختيار عليهن لإنجاب الامراء في الغالب لجمالهن، أما القسم الثاني والاقل شأناً فكان يخصصن للخدمة في القصور، أما عن مصادر الرقيق فكانت السبي ⁽²⁾ عن طريق الحروف والشراء من سوق العبيد، يطلق على الجواري عدة تسميات منها وصيفة وسرية وقينة وامى ويتم احياناً اهدائهن للأمراء والسلطين ⁽³⁾، تماماً كما أهدي للأمير أبو زكريا جارية نصرانية عندما كان والياً على مدينة اشبيلية في الاندلس، حيث قدم بها افريقية والتي ولدت له عدد من الأبناء اولهم ولي عهد الأمير أبو يحيى (زكريا) والذي تلقب به كما ولدت له ايضاً أبو حفص عمر وأبو بكر وأبو عبد الله محمد حتى استحققت تسمية ام الخلفاء ⁽⁴⁾، ولعل تلك الجارية كانت بداية عهد جديد وسياسية جديدة اتخذتها الدولة الحفصية في انجاب الامراء، حيث اعتمد أبو زكريا وابنه المستنصر الحفصي (647-675هـ / 1249-1277م) على سياسة الاكثار من استخدام الموالي والعبيد والجواري في القصور الى جانب كون تونس في عهدهما قد أصبحت محط انظار الوافدين والمهاجرين من شتى البقاع ولاسيما من الاندلس وجزر البحر المتوسط ⁽⁵⁾ ذوي الأصول النصرانية الرومية، ولعل سبب اقبال أبو زكريا وخلفائه من بعده على اقتناء الجواري الروميات النصرانيات لأنجاب الامراء يعود الى رغبة الدولة الحفصية من تقليل من تأثير العنصر العربي والبربري في الدولة سيما ان العصر الذي قامت به الدولة الحفصية عصر تميز بكثرة الثورات والتمردات من قبل العناصر العربية والبربرية؛ ولكون الجارية حتى وان كان لها تأثير وتدخل في الحكم فلا يرقى بخطورته الى تأثير وتدخل قد يؤدي الى قتل الخليفة او انهيار الدولة في حال كانت الأمهات منهن، لكل ما تقدم نجد ان بعض اميرات البيت الحفصي كن من أمهات الولد والتي يتم في الغالب عتقهن بعد انجابهن الذكور اما من قبل الفقهاء والقضاة او من قبل سيدها مباشرة ⁽⁶⁾.

يبدو ان تونس اخذت تعج بتلك الجواري بدءاً من عهد الأمير أبو زكريا بسبب كثرة الهجرات والجاليات الاندلسية، ولعل ذلك لموقع تونس المطل على البحر المتوسط فأصبحت سوقاً رائجاً للجواري وكما سبق ان ذكرنا فان مصادر الجواري متعددة يقف على راسها السبي في الحروب والتجارة بالرقيق، كما كان الامراء احياناً يرسلون السفارات والوفود لشراء الجواري ⁽⁷⁾.

(1) ابن ابي زرع، الانيس المطرب بروض القرطاس، 216 وما بعدها.

(2) ابن عبد الحكم، فتوح مصر والمغرب، 262؛ الرقيق القيرواني، تاريخ افريقية والمغرب، 42-45.

(3) الدباغ، معالم الايمان، 237/1؛ النويري، نهاية الأرب في فنون الادب، 249/24.

(4) ابن خلدون، التعريف بأبن خلدون ورحلته، 9.

* اشبيلية: احدى مدن غرب الاندلس واهم معاقل المسلمين فيها تعد عاصمة للموحدين بينها وبين قرطبة مسيرة ثمانية أيام (80 ميل) وهي مدينة قديمة ازلية معنى اسمها (المدينة المنبسطة) عامرة لها اسوار حصينة وفيها اغلب التجارات وتشتهر بتجارة الزيت. الحميري، الروض المعطار، 59.

كان قد تولى حكمها من بنو حفص عدد من أبناء الشيخ واحفاده كنواب عن الموحدية اولهم الشيخ أبو حفص نفسه ولاح عبد المؤمن عليها كذلك تولاهما الشيخ أبو محمد عبد الواحد ثم خلفه حفيده أبو زكريا. ابن صاحب الصلاة، تاريخ المن بالإمامة، 417؛ عنان، عصر المرابطين والموحدين، 41/2.

(5) المطوي، السلطنة الحفصية، 213؛ مسعود، الأثر الاجتماعي للهجرات الاندلسية، 255.

(6) المراكشي، المعجب، 376.

(7) إيلاف، دورة المرأة المغربية في الحياة العام، 89.

وفيما يخص أمهات اولاد الأمراء الحفصيين من ذوات الأصول غير العربية فسأتاتي على ذكرهن كما تحدثت عنهم المصادر التاريخية ووفق السياق الزمني:

(1) **الأميرة عطف زوجة الأمير أبو زكريا الحفصي مؤسس الدولة الحفصية**
التي اهديت له عندما كان والياً على اشبيلية⁽¹⁾ ثم قدم بها افريقية عندما اصبح والياً على قابس وولدت له أربعة من الأولاد هم حسب التسلسل أبو يحيى زكريا ولي عهده الذي توفي (646هـ / 1249م)⁽²⁾ ثم أبو بكر وأبو حفص عمر واخيراً أبو عبد الله محمد المستنصر الذي سيتولى الحكم بعد وفاة أبو زكريا حتى استحققت بذلك لقب ام الخلفاء، ولم تذكر لنا المصادر شيئاً عن اصلها ولكن كونها جارية من الأندلس يؤكد بشكل كبير على أصولها النصرانية الرومية⁽³⁾.

(2) **الاميرة طرفة (4) زوجة السلطان محمد المستنصر الحفصي**
ينفرد الزركشي بذكر اسم اخر لها وهو (ضرب)⁽⁵⁾ وكانت في الأصل رومية وضرب هو اسمها العربي وهنا نؤكد على عدم معرفتنا لأسمائهن الصريحة وإنما يبدو في الغالب بعد دخولهن القصور الحفصية يطلق عليهن أسماء عربية، ولعل ذلك يعود الى تربيتهن على الأصول والعادات العربية، والاميرة ضرب أصبحت ام ولد بعد ان انجبت ثالث امراء البيت الحفصي وولي عهد ابيه المستنصر الأمير أبو محمد يحيى الواثق الله (675-679هـ / 1276-1280م)⁽⁶⁾، لذلك نجد ان المستنصر الحفصي الذي تميز عهده بالقوة حتى عُد من ازهى عهود الدولة الحفصية كان في الحقيقة ابن جارية وزوج جارية رومية، ويبدو من سير الاحداث ان كان لأمه الرومية دوراً في توليه الحكم بعد ابيه دوناً عن اخوته خاصة انه لم يكن اكبرهم سناً⁽⁷⁾.

(3) **الاميرة رويدا**
هذا اسمها العربي ايضاً جارية رومية الأصل تزوجها الأمير أبو زكريا فأنجبت له المولى أبو إسحاق إبراهيم ابن المولى الأمير أبو زكريا سنة (631هـ / 1234م)⁽⁸⁾، وبهذا يكون اخو الخليفة المستنصر الحفصي.

(4) **الاميرة محرم**
رابع أمهات الأولاد تزوجها السلطان أبو العباس (711-717هـ / 1311-1318م) فأنجبت الأمير أبو يحيى زكريا سنة (651هـ / 1253م)⁽⁹⁾.

(5) **الاميرة امّ ملح الناس**
جارية رومية الأصل انجبت السلطان ابي بكر يحيى ابن إبراهيم ابن الأمير أبو زكريا الحفصي والذي ولد سنة (692هـ / 1293م)⁽¹⁰⁾.

(1) ابن خلدون، التعريف بأبن خلدون، 9.

(2) ابن ابي الضياف، اتحاف اهل الزمان، 159/1.

(3) الزركشي، تاريخ الدولتين، 33.

(4) ابن قنفذ، الفارسية، 343؛ ابن الشماخ، الأدلة البينية، 74.

(5) تاريخ الدولتين، 41.

(6) المطوي، السلطنة الحفصية، 237.

(7) الزركشي، تاريخ الدولتين، 33.

(8) الزركشي، تاريخ الدولتين، 43.

(9) الزركشي، تاريخ الدولتين، 62.

(10) الزركشي، تاريخ الدولتين، 66.

(6) الأميرة حُباب

وهنا لم يذكر الزركشي أصلها واكتفى بالقول انها ام ولد فقط انجبت السلطان أبو يحيى أبو بكر ابن المولى الأمير ابي زكريا ابن المولى السلطان ابي إسحاق إبراهيم في جمادى الأولى من سنة (723 هـ / 1323 م) ⁽¹⁾.

(7) الاميرة سعد السعود

ام ولد رومية الأصل انجبت السلطان أبو العباس احمد بن ابي بكر بمدينة قسنطينة ⁽²⁾ سنة (729 هـ / 1334 م) ⁽³⁾ الذي لم يحكم سوى سبعة أيام فقط حيث قتله اخوه الأمير أبو حفص عمر واستولى على الحكم الحكم سنة (747 هـ / 1346 م) ⁽⁴⁾.

(8) الأميرة عطف

ام ولد رومية الأصل والدة السلطان أبو العباس احمد الشهير (بالفضل) ⁽⁵⁾ بن المولى أبي يحيى أبي بكر وكان هذا السلطان من اجمل الناس صورة وهذا يدفعنا للجزم بجمال الام والذي لعب بلا شك دوراً رئيسياً في اختيار الجواري الحسان لإنجاب الامراء كما انه يدفعنا للقول بأن جمال الجواري كان عاملاً رئيسياً في اتخاذهن أمهات ولد، ولد هذا السلطان في رمضان من سنة (721 هـ / 1311 م) ⁽⁶⁾.

(9) الاميرة قرب الرضا

ام ولد انجبت السلطان أبو إسحاق إبراهيم ابن ابي بكر في ربيع الأول سنة (737 هـ / 1336 م) الذي تولى الحكم في 11 جمادى الأولى من سنة (751 هـ / 1350 م) ⁽⁷⁾ ولم يكن توليه الحكم سهلاً بل جاء بتدبير من هذه الام وبالتعاون مع الوزير محمد ابن تافراكين ^(*) (ت. 766 هـ / 1365 م) ⁽⁸⁾ بعد ان بذل لها الوعود والمواثيق بالمحافظة على حياة الأمير اذ يبدو من سير الاحداث آنذاك انها كانت تخفي ابنها بأحد الدور في

(1) الزركشي، تاريخ الدولتين، 80.

(2) قسنطينة : من اشهر مدن افريقية بعد القيروان وتونس حيث كانت من الولايات المهمة في عهد الدولة الحفصية لا يتولاها منهم الا من ذوي الثقة من الامراء الانجاد وهي مدينة كبيرة عامرة قديمة ازلية فيها اثار للأول تعد من اكثر مدن افريقية حصانة حيث لا يعرف بأفريقية احصن منها كثيرة الخصب والزرع ولها بساتين كثيرة الفواكه شديدة البرد والتلج بها كثير. البكري، المغرب، 43؛ الحموي، معجم البلدان، 473؛ مجهول، الاستبصار في عجاب الامصار، 165-166.

(3) ابن الشماخ، الأدلة البينية، 93؛ ابين ابي الضياف، اتحاف، 174/1.

(4) الزركشي، تاريخ الدولتين، 81؛ ابن الشماخ، الأدلة البينية، 93.

(5) ابن الشماخ، الأدلة البينية، 100.

(6) الزركشي، تاريخ الدولتين، 91.

(7) الزركشي، تاريخ الدولتين، 92.

(*) هو أبو محمد بن عبد الله بن تافراكين يعود اصله الى تافراكين وهم من بيوتات الموحيدين من طبقة (الخمسین) ولى عبد المؤمن بن علي كبيرهم عمر ابن تافراكين على فاس وبرز دور محمد بن تافراكين هذا في عهد السلطان أبو زكريا يحيى (711-718 هـ / 1311-1317 م) حيث اصبح على رأس شيوخ الدولة واخذت مكانته ترتفع شيئاً فشيئاً حتى ما كان منه من مصاهرة الحفصيين واكمل سلطانه في الدولة. للمزيد ينظر: ابن خلدون، العبر، 348/6؛ ابن الشماخ، الأدلة البينية، 91؛ الزركشي، تاريخ الدولتين، 101.

(8) ابن الشماخ، الأدلة البينية، 105.



تونس خشية قتله⁽¹⁾ وهذا يعكس لنا دور الجواري الخطير في سياسية الدولة الحفصية ولا سيما في أوقات الأزمات وضعف الدولة.

10) الأميرة قشوال

جارية عربية أصبحت ام ولد بعد انجابها للسلطان أبو العباس احمد ابن ابي عبد الله محمد ابن السلطان المولى ابي يحيى ابي بكر ولد في ربيع الثاني من سنة (729هـ / 1329م) وبويع بالسلطنة في الثاني عشر من شهر ربيع الأول في (772هـ / 1370م)⁽²⁾.

11) الأميرة جوهرة زوجة السلطان أبو العباس احمد بن محمد

ووالدة السلطان الهمام عظيم الشأن الذائع الصيت أبو فارس عبد العزيز الشهير بعزوز (796-837هـ / 1393-1433م) والذي ولد سنة (763هـ / 1364م)⁽³⁾ والغريب في هذه الجارية انها كانت عربية الأصل ومن بنو سليم (*) تحديداً من الحرات المحاميد عرب طرابلس على وجه الخصوص⁽⁴⁾، ويضيف الزركشي بقوله عن هذه الجارية "ولها حكاية يطول ذكرها" دون ان يفسر معنى ذلك ولنا ان نتصور الكيفية التي تحولت بها امرأة عربية حرة الى جارية في القصر الحفصي فهي بلا شك سببت ووقعت بالأسر في اثناء المعارك التي كانت تدور بين الدولة الحفصية والقبائل العربية فكانت تقع نسائهم بالأسر ويصبحن جواري في سوق العبيد، وسنلاحظ عند حديثنا عن المصاهرات واثرها السياسي كيف انعكست الصورة في أوقات ضعف الدولة الحفصية بأن لجأ الامراء بتزويج بناتهم لشيوخ القبائل العربية اتقاء لشهرهم وضماناً لولائهم، لهذا نقول ان اقدام الأمير أبو العباس احمد على اتخاذ جارية عربية ام لولده هي في حد ذاتها سابقة تاريخية وقد انجب منها اشهر واقوى سلاطين بنو حفص المتأخرين والذي سيطول عهده لأكثر من أربعين سنة⁽⁵⁾.

لهذا نجد ان ام السلطان أبو العباس احمد كانت جارية عربية وزوجته جارية عربية وهذا يعكس التغيير الذي شهدته الدولة الحفصية بداية من عهد السلطان بداية من عهد السلطان أبو العباس احمد نحو استمالة القبائل العربية لأن المصاهرة عند هذه القبائل لها قيمة عليا، كما انها تعكس تأثير الام العربية في زواج ابها السلطان من جارية عربية فيما بعد والتي ستتجنب اعظم سلاطين بنو حفص المتأخرين السلطان أبو فارس عبد العزيز، فاعل للدماء العربية دوراً في وصول هذين السلطانين الى ما وصلا اليه والذين ساهما في رفع مكانة الدولة بعد فترات الضعف والانحيار.

المحور الثاني: المصاهرات واثرها السياسي

كانت المصاهرات ولا تزال قائمة على طول التاريخ البشري تلجأ اليها الدول كثيراً ولا سيما في أوقات الازمات السياسية الخانقة حيث يعم الهدوء والاستقرار بين الخصوم او قد تلجأ الدول لتلك المصاهرات تحت الضغط والتهديد وهو بالنتيجة لا يختلف كثيراً على السبب الأول الذي ذكرناه فكلهما يؤديان الى

(1) الزركشي، تاريخ الدولتين، 92.

(2) ابن ابي الضياف، اتحاف، 180/1.

(3) ابن الشماخ، الأدلة البينية، 108.

(*) بنو سليم: هم ولد سليم بن منصور بن خصفة بن قيس عيلان بطن متسع من بطون مضر وأكثرها جمعاً، كانت مواطنهم الأولى في نجد والحجاز، ثم دخلوا مصر واستقروا في صعيدها الى ان ادخلهم الفاطميون افريقية في الزحف الهلالي سنة (440هـ / 1140م) حيث دخلوا مع بنو هلال المغرب، ومن اشهر بطونهم (عوف، شريد، دباب، وهيب، مرداس)، استقروا اول الامر في إقليم برقة ثم انتشروا بعد ذلك الى بقية أجزاء افريقية وكانت رئاستهم في وشاح بن عامر بن دباب والمحاميد هم فرع من بنو وشاح. للمزيد ينظر: ابن خلدون، العبر، 71/6-85؛ المقرئ، البيان والاعراب بما في ارض مصر من الاعراب، 28.

(4) ابن قنفذ، الفارسية، 416 ؛ ابن الشماخ، الأدلة البينية، 143-153؛ الزركشي، تاريخ الدولتين، 104.

(5) برونشفيك، تاريخ افريقية، 242/1.

نشر الاستقرار والسلام لأن الحروب في حالة حدوثها الجميع يخرج منها خاسراً سواء المنتصرين أو المهزومين كون أول نتائجها هي الفوضى وعدم الاستقرار واضطراب الأوضاع السياسية والاقتصادية وتردي الخدمات وتفشي الأمراض وضعف القانون وغيرها الكثير، لهذا نجد أن الدول تلجأ لعقدها لتجنب ويلات كثيرة قد تتعرض لها، فقط لعبت المصاهرات دورها في حسم الخلافات وإشاعة علاقات اللفة والتعايش السلمي⁽¹⁾.

والحفصيون شأنهم شأن أي دولة أخرى لقد عقدوا المصاهرات مع غيرهم فكانت لديهم مصاهرات داخل البيت الحفصي الحاكم (أبناء العمومة والأقارب) كما كانت لديهم مصاهرات مع شخصيات متنوعة (خطرة) في آن واحد، كما عقدوا أيضاً المصاهرات مع أمراء القوى الخارجية كالدولة الزيانية (647-962هـ / 1249-1555م) والدولة المرينية (668-889هـ / 1270-1472م). سنأتي للحديث عن تلك المصاهرات كل على حدى وحسب السبق التاريخي لعقدها.

أولاً: المصاهرة مع البيت الحفصي

لم تقدم لنا المصادر التاريخية التي تحدثت عن الدولة الحفصية سوى مثالين على هذه المصاهرات وأولهما بين أبناء العمومة من الحفصيين عندما زوج السلطان أبو يحيى زكريا ابن اللحياني (711-717هـ / 1311-1318م) ابنته من ابن ابن عمه المدعو محمد بن أبي بكر بن أبي عمران وأبو عمران هو موسى بن إبراهيم⁽²⁾ ابن الشيخ أبو حفص وكان ال عمران أولئك من أقارب الحفصيين يجمعهم النسب في الشيخ أبو حفص وقد قدموا إفريقية مع أبناء عمومته وأقام الجد أبو عمران في جملتهم إلى أن مات فنشأ بنوه في ظل الدولة الحفصية حتى كان من عقبه أبو بكر والد صهر اللحياني⁽³⁾، وكان السلطان أبو يحيى قد رعى ذمته وقربته وزاد في تكريمه أن زوج ابنته من محمد بن أبي عمران ولم يكتفي بذلك بل جعله نائباً عنه وخليفته على تونس عند خروجه منها ثم استخلفه على طرابلس⁽⁴⁾، والحقيقة أن الأثر السياسي لهذه المصاهرة الداخلية ضمن البيت الحفصي غداً واضحاً فيما بعد إذ سمت نفس محمد بن عمران للاستيلاء على العرش الحفصي فسار بجيشه من طرابلس نحو تونس سنة (721هـ / 1321م) انتهت باستيلائه على العاصمة وتلقي البيعة فيها ومكث فيها نحو أربع سنوات⁽⁵⁾، أما المصاهرة الثانية فقد انفرد بذكرها الزركشي بقوله "وفي يوم السبت الموفى لعشرين من ربيع الثاني ... عمل المولى السلطان (أبو عمرو عثمان) عرساً لولده المولى الهمام ولي عهد الخلافة أبي عبد الله محمد المسعود على ابنة عمه شقيق الخليفة المنتصر"⁽⁶⁾ وتم عقد الخطبة في شهر ربيع الأول من سنة (851هـ / 1447م)، ويذكر أيضاً أن السلطان السلطان اطعم في العرس المذكور أهل الحضرة (تونس) من غرة ربيع الأول إلى يوم العرس ثم أعطى لأهل ربض باب السويقة (أحد أبواب تونس) 60 رأساً من البقر و60 قفيزاً⁽⁷⁾ من القمح ومثل ذلك لأهل رض باب الجزيرة (أحد أبواب تونس)⁽⁸⁾.

(1) عبد الوهاب، شهرات التونسيات، 10.

(2) برونشفيك، تاريخ إفريقية، 49/1.

(3) ابن خلدون، العبر، 364-363/6.

(4) ابن قنفذ، الفارسية، 159.

(5) برونشفيك، تاريخ إفريقية، 176/1.

(6) الزركشي، تاريخ الدولتين، 144.

(7) قفيز: من المكايل التي تفاوتت الناس في تقديرها لإختلاف الاصطلاح فيها فاختلف الأئمة في تحديد القفيز فعند المالكية يساوي 98كغم تقريباً وعند الشافعية يساوي 24.48 كغم. جمعة، المكايل والموازين الشرعية، 39-40.

(8) إذ كانت ولادة الأمير أبي إسحاق إبراهيم في شهر ربيع الأول سنة (737هـ /) وبويع في جمادى الأول من سنة (751هـ /) وبذلك يكون عمره عند بيعته 14 سنة. ابن الشماخ، الأدلة البينية، 102.

ثانياً: مع الشخصيات البارزة في الدولة

(أ) الوزراء

وهذا النوع من المصاهرات أيضاً كسابقه سجلت لنا المصادر حالة نادرة واحدة عكست من خلالها سيطرت الوزراء على مقاليد الأمور في الدولة الحفصية وخاصة في أوقات الازمات والضعف السياسي حيث تبرز شخصية الوزراء على الساحة السياسية في الدولة ويصبح في يدهم الحل والعقل في جميع الأمور، وهذا ما يصح على شخصية شيخ الدولة الوزير أبو محمد ابن تافراكين الذي كان له دور فاعل في بيعة السلطان أبو إسحاق إبراهيم رغم صغر سن الأخير الذي لم يكن يبلغ سن الرشد بعد⁽¹⁾، فاستبد الوزير ابن تافراكين بمقاليد الأمور، ويذكر ابن الشماخ نصاً يوضح المكانة التي كان يتمتع بها بقوله "انفرد بتدبير أمور الدولة وكان له في ذلك باع طويل وكان الاشياخ يأتون الى رياضته كل صباح وانتهى امره الى ان يسلم عليه سلام الملوك"⁽²⁾ ولم يكتفي بذلك بل طمع بما هو اكبر بالسلطة من خلال حفيده الحفصي حيث زوج ابنته من السلطان أبو إسحاق إبراهيم⁽³⁾، ويذكر ابن الشماخ أيضاً ان عقد زواجهما تم يوم الثلاثاء الخامس والعشرين من شهر صفر من سنة (766هـ / 1364م) وقد اصدق المولى السلطان على ابنة الشيخ الوزير ابن تافراكين بالقبة الكبرى كتبه الشيخ ابن مرزوق (781هـ / 1389م)⁽⁴⁾ وقراه ابن عرفة (812هـ /)⁽⁵⁾ وكان مقدار هذا الصداق اثنا عشر الف دينار من الذهب / الفين وثلاثون خادماً مولدات واعجميات⁽⁶⁾ واحتفل بذلك العرس غاية الاحتفال ووضع من الطعام ما عم جميع الناس⁽⁷⁾.

(ب) شيوخ القبائل العربية

عانت الدولة الحفصية طوال تاريخها من علاقة غير مستقرة مع القبائل العربية قتارة نجد ان الأمور تصل الى حد الحرب والصراع العسكري بسبب عدم قبول تلك القبائل الخضوع للسلطة المركزية الحفصية وعيها المستمر ولاسيما في مناطق جنوب افريقية واطراف المدن مما سبب في سخط الناس من ذلك، فكانت تلجأ الدولة احياناً لإخضاعها بالقوة و احياناً أخرى تسود فترات هدوء ومهادنة بين الطرفين والحقيقة ان الظرف السياسي في تونس قد انعكس على علاقتها بهذه القبائل التي كانت تستغل الأوضاع السائدة في الدولة الحفصية وتتدخل احياناً حتى في اختيار السلاطين⁽⁸⁾، منها ما قامت به قبيلة الكعوب

(1) ابن خلدون، العبر، 348/6.

(2) الأدلة البينية، 102.

(3) ابن الشماخ، الأدلة البينية، 105.

(4) ابن مرزوق: ولد الشيخ والفقير والعالم والخطيب أبو عبد الله بن احمد بن مرزوق التمساني سنة (710هـ / 1310م) من اشهر علماء عصره ولاسيما في الخطابة ذاع صيته شرقاً وغرباً وكان له مكانة متميزة في الدولة الحفصية وقلما منبر في عواصم الإسلام لم يخطب عليه فقد خطب على منابر الشرق والغرب والاندلس والمغرب على نحو 48 منبراً له مؤلفات عدة شرح العمدة توفي في التاريخ المذكور أعلاه في القاهرة . ابن قنفذ، الفارسية، 57؛ الزركشي، 100.

(5) ابن عرفة: أبو عبد الله محمد بن محمد بن عرفة الورغمي التونسي رأس العلماء في تونس فقيه ومفتي وامام وخطيب جامع جامع الزيتونة قطب من اقطاب الفقه المالكي في تونس ولد سنة (716هـ / 1314م) تلقى العلم على ابن عبد السلام (ت. 749هـ / 1346م) عاصر العديد من امراء البيت الحفصي وكان مقدم له على غيره من الفقهاء وتولى الامامة في جامع الزيتونة نحو 50 سنة واخذ عنه ابن قنفذ (ت. 810هـ / 1407م). ابن قنفذ، الفارسية، 68؛ المسعودي، الخلاصة النقية، 73-80.

(6) ابن الشماخ، الأدلة البينية، 105.

(7) ابن الشماخ، الأدلة البينية، 105.

(8) الزركشي، تاريخ الدولتين، 82-83.



العربية⁽¹⁾ التي أعلنت الثورة ضد الدولة الحفصية فأضطرت الأخيرة لإرسال جيوش للقضاء عليها والذي من شأنه أثار غضب أهالي تونس بسبب أعمال السلب والنهب التي كانت تقوم بها هذه القبائل في ضواحي المدينة⁽²⁾، وسبب هذه الثورات ان تلك القبائل كانت تتمتع بامتيازات كثيرة قد حصلت عليها في فترات بعض الامراء حتى قويت شوكتها فأخذت تتعدى على المدن بل وصلت درجة استهتارهم واستهزائهم ان دخل شيخهم المدعو (هداج ابن عبيد)⁽³⁾ جامع الزيتونة وهو يلبس نعله وعندما زجره المصلون قال بوقاحة دخلت والله بهما على السلطان فسخط الناس وقتلوه واندلعت الثورة، ورغم قدرة الدولة على اخمادها إلا انها كانت إشارة على ضعف الحكومة الحفصية من جهة وقوة تلك القبيلة من جهة أخرى وخير من عبر عن ذلك ابن خلدون بقوله "ولما افترق سلطان بن ابي حفص، واستبد الكعوب برئاسة البدو وضربوا بين اعياصها، ... اصابت منهم واصابوا منها وكان بين مولانا الأمير ابي يحيى وبين حمزة بن علي منازعة وفتن وحب سجال اعانه عليها ..."⁽⁴⁾، لهذا نجدهم يلجؤون احياناً للتخفيف من حدة الازمات التي سببتها تلك القبائل عن طريق المصاهرة معها⁽⁵⁾.

ويذكر ابن الشماخ ان السلطان أبو العباس الفضل الحفصي زوج اخته لأمير قبيلة الكعوب المدعو أبو الليل بن حمزة والمعروف بقتيبة ولم يسبقه احد من الملوك الى ذلك (رجاء ان يطول ملكه)⁽⁶⁾ والأسباب تتضح من العبارة الأخيرة تجعلنا نكاد نجزم ان الغاية من عقد المصاهرة انما جاء لضمان ولائهم للسلطان الحفصي من جهة وعدم الخروج عليه من جهة أخرى، والحقيقة ان المصاهرة بين ملوك المغرب والقبائل العربية لم تأتي من قبل الحفصيين أولاً قد سبقهم اليها الأمير المعز بن باديس الصنهاجي (406-454هـ / 1016-1162م) الذي زوج بناته الثلاثة من امراء القبائل العربية كما زوج ابنة أخرى لقائد القبائل الهلالية قاطبة مؤنس بن يحيى الرياحي⁽⁷⁾، بل يذكر ابن خلدون نصاً يوضح اثر ذلك الزواج بقوله "وخرج المعز المعز من القيروان سنة تسع وأربعين مع خفيهر ... مؤنس بن يحيى امير رياح فلحق في خفارته بالمهدية بعد ان اصهر اليه في ابنته ..."⁽⁸⁾ والخفارة هنا جاءت بمعنى الأمان وتوفير الحماية مما يدل على البعد السياسي أولاً للمصاهرة والنقطة الثانية عدم قدرة المعز على السفر نحو اية جهة داخل دولته دون حراسة وحماية لأنه بكل بساطة فقد الأمان والثقة فيمن حوله من اتباع فاضطر للجوء للقبائل العربية.

⁽¹⁾ قبيلة الكعوب: وهي احدى القبائل التي يرجع نسبها الى قبيلة سليم العربية دخلوا المغرب مع القبائل الهلالية وبنو كعب ينسبون لفرع (بنو عوف من سليم) وكانت مواطنهم من وادي قابس الى بونة ولهم فرعان عظيمان مرداس وعلاق ولعلاق بطنان بنو يحيى وبنو حصن وليحيى حمير ودلاج ومن حمير ظهر الكعوب فهم ولد كعب بن احمد بن حمير بن عوف، وكان أبو زكريا الحفصي قد جاء بمرداس وعلاق واسكنهم ضواحي قابس والسواحل واصطنعهم، وكانت مشيخة الكعوب على عهده لأولاد شيخة بن يعقوب بن كعب. ابن خلدون، العبر، 73/6؛ المطوي، السلطنة الحفصية، 229.

(2) برونشفيك، تاريخ افريقية، 146/1-147.

(3) هداغ ابن عبيد: شيخ قبيلة الكعوب (ت. 705هـ / 1306م) الذي عظمت ثروته وازدادت سطوته ويعتبر السبب المباشر لاندلاع ثورة الكعوب في التاريخ المذكور. ابن خلدون العبر، 314/6؛ المطوي، السلطنة الحفصية، 299.

(4) ابن خلدون، العبر، 325/7.

(5) الأدلة البينية، 100.

(6) ابن خلدون، العبر، 15/6-16.

(7) ابن خلدون، العبر، 159/6.

(8) ابن خلدون، العبر، 159/6.

(ج) القوى الخارجية - مع الدولة الزيانية

حكم بنو زيان المغرب الاوسط وعاصمته تلمسان لفترة تقارب حكم الدولة الحفصية (647-962هـ / 1249-1555م) وقد نعمت الدولتين بعلاقات حسن جوار وود في اغلب الأحيان تشوبها بعض فترات الجفاء والقطيعة التي سرعان ما تنتهي وقد قدمت لنا المصادر اخبار عن زيجتين بين البيت الزياني والبيت الحفصي يتضح من خلالها الأثر السياسي لتلك المصاهرات. فقد عقدت المصاهرة الأولى بني الطرفين عندما تزوج الأمير أبو سعيد عثمان ولي عهد الدولة الزيانية الاميرة الحفصية ابنة السلطان أبو إسحاق إبراهيم (678-681هـ / 1282-1284م)⁽¹⁾ في فترة كانت الدولة الحفصية تعاني فيها الاضطراب فاحتاجت الى الدعم من جيرانها الشرقيين (بنو زيان) ويعتبر هذا الزواج توطيد لأواصر الصلة بين البيتين الزياني والحفصي وتأكيد على رغبة السلطان الزياني الى نشوء العلاقات الطيبة بين الجانبين في عهده وعهد ابنه وولي عهده وسيكتب لهذه الاميرة الحفصية انجاب اثنين من اقوى سلاطين بنو زيان السلطان أبو زيان محمد بن أبي سعيد (703-706هـ / 1304-1307م) والسلطان أبو حمو موسى بن أبي سعيد (706-718هـ / 1307-1318م)⁽²⁾، ولعل الأثر السياسي يبدو واضحاً من هذه المصاهرة التي لعبت دوراً مهماً في توطيد أواصر الصلة بين البلدين إذ بوفاة أبو حمو الزياني سنة (718هـ / 1318م) ساءت العلاقات بين الطرفين بسبب مساندة بنو زيان للخارجين عن الدولة الحفصية⁽³⁾، وهذا ما يجعلنا نتكلم عن المصاهرة الثانية التي كانت فيها الدولة الحفصية هي الأقوى والتي عقدت في عهد السلطان أبو عمرو عثمان الحفصي (839-893هـ / 1439-1488م) الذي حاصر تلمسان بعد نقضها للطاعة وهذا دليل على قوة الدولة الحفصية في عهده وما ان شارف اسوارها حتى خرج اليه علمائها راغبين في الطاعة مجددين البيعة فقبل ذلك، لكنها عادت ونقضت العهد مرة أخرى فأعاد غزوها وهدم اسوارها فعادوا للضراعة (وطلبت العفو فعفا عنهم وزوج صاحبها ابنته الى حفيد السلطان)⁽⁴⁾ وكان المتولي لحكم تلمسان الأمير محمد بن محمد بن أبي ثابت الزياني (866هـ / 1462م)⁽⁵⁾.

ولهذا نجد الأثر السياسي الواضح من تلك المصاهرات فإن زواج الاميرة الزيانية من حفيد السلطان الحفصي انما جاء كنوع من خطب الود من قبل بني زيان لجيرانهم الحفصيين الأقوياء واصهارهم القدماء وضمان لعدم تكرار الصراع بين الطرفين.

- مع الدولة المرينية

سجلت لنا المصادر التاريخية حالتين للمصاهرة تمت بين الدولتين الحفصية والمرينية ويتضح من خلالها البعد السياسي لتلك المصاهرات حيث لجأ بنو حفصي في أوقات الازمات واضطراب الأوضاع السياسية فطلب المساعدة من جيرانهم حكام المغرب الأقصى (بنو مرين) كان اخرها عندما طلب السلطان أبو بكر الحفصي (718-748هـ / 1318-1346م)⁽⁶⁾ العون من السلطان المريني أبو سعيد عثمان (710-731هـ / 1310-1331م) ضد أعداء الدولة الحفصية⁽⁷⁾ وبالمقابل استغل السلطان المريني هذا الطلب وارسل وفداً للسلطان الحفصي لخطبة ابنته الاميرة فاطمة لولي عهد الدولة المرينية الأمير أبو الحسن الذي سيتولى حكم بنو مرين بعد والده (731-749هـ / 1331-1348م)⁽⁸⁾ ولم يكن امام السلطان

(1) ابن خلدون، العبر، 171/7؛ ربحاب، اثر الزواج السياسي، 65.

(2) ربحاب محمد، اثر الزواج السياسي في سياسة سلاطين الدولة الحفصية، 53.

(3) السمعودي، الخلاصة النقية، 83.

(4) الزركشي، تاريخ الدولتين، 153.

(5) المطوي، السلطنة الحفصية، 629.

(6) ابن الشماخ، الأدلة البينية، 88-91.

(7) ابن أبي زرع، الانيس المطرب، 295-296؛ ابن خلدون، العبر، 241/7-242.

(8) المطوي، السلطنة الحفصية، 587؛ برونشفيك، تاريخ افريقية، 180/1.

الحفصي سوا الموافقة على ذلك العرض وزفت العروس الحفصية الى المغرب الأقصى، وكان من تكريم بنو مرين لها ان خرج السلطان أبو سعيد بنفسه لاستقبالها (كرامة لها ولأبيها وسروراً بها) ⁽¹⁾.
اما المصاهرة الثانية بين البيتين فقد جاءت بعد وفاة الاميرة فاطمة زوجة السلطان أبو الحسن بمعركة طريف ⁽²⁾ سنة (741هـ / 1341م) حيث قرر السلطان المريني ان يخطب اختها الاميرة عزونة ابنة السلطان أبو بكر، تعويضاً عن خسارته لزوجته الأولى، ويصف ابن خلدون سبب رغبة أبو الحسن بتكرار المصاهرة بأختها "بأنه ... بقي في نفسه منها شيء حنيناً الى ما شغفته من خلالها من عز سلطانها، وقيامها على بيتها وضرفها في تصرفاتها ولذة العيش في عشتها فسمما امله الى الاعتياض منها ببعض اخواتها ... ⁽³⁾" وبعد تردد طويل قرر السلطان أبو بكر الحفصي الموافقة على عقد المصاهرة فأرسل الاميرة عزونة الى المغرب الأقصى برفقة احد اخواتها حيث استقبلت بكل ترحيب من قبل زوجها السلطان أبو الحسن الذي بنى لها فخيماً ⁽⁴⁾، ولعل الغرض من تلك المصاهرتين التي عقدهما السلطان أبو بكر الحفصي مع بنو مرين هو التخفيف من خطر بنو زيان جيرانه الشرقيين، لكنها في الواقع لم تأتي بخير على الدولة الحفصية إذ كان من ابرز نتائج تلك المصاهرات ان جعلت الدولة الحفصية مستقبلها تحت رحمة المرينيين وقوت اطماعهم في تونس وضم المغرب كله تحت حكمهم ⁽⁵⁾، إذ تبين ان السلطان أبو الحسن أراد ان يبقي على صلة متينة بالبلاط الحفصي ليستغل تلك الصلة يوماً ما في تحقيق مطامعه السياسية وهو ما حدث بالفعل، حيث سيقدم السلطان أبو الحسن المريني على احتلال تونس بعد وفاة السلطان أبو بكر الحفصي سنة (748هـ / 1348م) ⁽⁶⁾.

الخاتمة

من خلال بحثنا في هذا الموضوع توصلنا الى عدة نتائج :

(1) لم تتولى نساء البيت الحفصي بشكل مباشر، وعلينا هنا ان ننوه الى الحقيقة التاريخية المهمة اننا لم نجد اميرة مغربية واحدة جلست على كرسي الحكم طوال تاريخه الذي سبق الإسلام وحتى في الإسلامي ايضاً وهذا الامر ينطبق على نساء البيت الحفصي اللاتي مارسن دوراً سياسياً غير مباشر او كما يقال من وراء حجاب ساهمن من خلاله في استقرار الأوضاع السياسية للدولة ولاسيما في أوقات الازمات والذي تمثل بقبولهن للزواج من غير الحفصيين.

⁽¹⁾ ابن الشماخ، الأدلة البينية، 91.

⁽²⁾ معركة طريف: وهي من المعارك الأليمة التي خسر فيها المسلمون الحرب امام نصارى الممالك الاسبانية في الاندلس خسارة شنعاء اعادت للأذهان خسارة المسلمين في معركة العقاب سنة (609هـ / 1212م) وقعت بين الجيش المريني بقيادة السلطان أبو الحسن وبين الممالك الاسبانية عند طريف انتهت بخسارة المرينيين المعركة رغم استعدادهم الكبير حيث ساعدهم الحفصيون في ذلك إلا ان الهزيمة كانت كبيرة لهذه الموقعة التي تمت في جمادى الأولى من سنة (741هـ / 1340م) قتل فيها ما لا يحصى من المسلمين واقتحم العدو فسطاط السلطان المريني أبو الحسن وفيه نسائه وحريمه والبعض من أولاده فقتلوا عن اخرهم ومثل بهم وفر السلطان أبو الحسن من ارض المعركة نحو المغرب الأقصى. الناصري، الاستقصا، 136-153؛ المطوي، السلطنة الحفصية، 368؛ الحريري، تاريخ المغرب الإسلامي، 107.

⁽³⁾ ابن خلدون، العبر، 321/7.

⁽⁴⁾ برونشفيك، تاريخ افريقية، 195/1.

⁽⁵⁾ ابن قنفذ، الفارسية، 23.

⁽⁶⁾ ابن الشماخ، الأدلة البينية، 96؛ ابن مرزوق، المسند الصحيح، 389؛ ابن الأحمر، النفحة النصرية واللمحة المرينية، 47.

(2) ان الامراء الحفصيون الأوائل قد أفادوا من مصاهرتهم بالأميرات الكوميات اللواتي ساهمن في إيصال أزواجهن لأرفع المناصب في الدولة الحفصية وكان من ابرز نتائج تلك المصاهرات حكمهم لإفريقية التي تحولت فيما بعد الى نواة اقاموا عليها دولتهم الحفصية.

(3) اغلب أمهات الامراء الحفصيين كن من الجواري وهذه ظاهرة واضحة في الدولة لا نقل غريبة ولكن يبدو ان امراء البيت الحفصي قد بالغوا في اتخاذ الجواري أمهات أولاد دون العناصر العربية او البربرية، فقد لعبت بعضهن دوراً في إيصال ابنائهن الى كرسي الحكم.

(4) لعبت الاميرات الحفصيات دوراً سياسياً مهماً ومباشراً ولاسيما في السياسة الخارجية للدولة عندما تمكن من التأثير على أزواجهن من بنو مريـن وبنو زيان وكسب ولائهم للدولة الحفصية خاصة بعد ان انجبـن الامراء الذين اصبحوا سلاطين.

(5) ساهمت المرأة الحفصية في تخفيف حدة التوتر في المغرب الإسلامي وتحقيق الامن والبلاد في ربوع البلاد من خلال تلك الشبكة من العلاقات الاجتماعية الوثيقة التي كانت الغاية منها تحسين أوضاع الدولة الحفصية العامة والقضاء على الفوضى وحماية الحدود الخارجية.

قائمة المصادر والمراجع

المصادر

ابن ابي الضياف ، أبو العباس احمد بن الحاج عمر (ت. 1291هـ / 1874م) .
اتحاف اهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الامام ، تحقيق : لجنة من كتاب الدولة للشؤون الثقافية ، مطابع الدولة الرسمية مطبعة الفجالة ، (تونس : 1960) .

ابن ابي زرع ، أبو الحسن علي بن عبد الله الفاسي (ت. 741هـ / 1340م) .
الانيس المطرب بروض القرطاس في اخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس ، دار المنصور للطباعة والوراقة ، (الرباط : 1972م) .

ابن الأحمر ، أبو الوليد إسماعيل بن يوسف (ت. 810هـ / 1407م) .
روضة النسرین في دولة بني مريـن ، المطبعة الملكية ، ط2 ، (الرباط ، 1962) . النفحة النسرينية واللمحة المرينية ، تحقيق : محمد علي ، (دمشق : 1992) .

ابن الشماخ ، أبو عبد الله محمد ابن احمد الهنتاتي (ت. 861هـ / 1465م) .
الأدلة البينية النورانية ، في مفاخر الدولة الحفصية ، تحقيق وتقديم : الطاهر بن محمد الهواري ، الدار العربية للكتاب ، (بسكرة : 1984) .

ابن خلدون ، أبو زيد عبد الرحمن محمد الحضرمي (ت. 808هـ / 1405م) .
العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر ، مؤسسة جمال للطباعة ، (بيروت ، 1979) .
التعريف بابن خلدون ورحلته شرقاً وغرباً، تحقيق: محمد بن تاووت الطنجي، (القاهرة، 1951).

ابن صاحب الصلاة، عبد الملك (ت. 605هـ / 1208م).
تاريخ المن بالامامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة وجعلهم الوارثين، تحقيق: عبد الهادي التازي، (العراق، 1979).

ابن قنفذ ، أبو العباس احمد بن حسن القسنطيني (ت. 810هـ / 1417م) .
الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية ، تحقيق وتعليق : محمد الشاذلي وعبد الحميد التركي ، الدار التونسية ، (تونس : 1986) .

ابن مرزوق ، أبو عبد الله محمد بن علي (ت. 781هـ / 1379م) .
المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبو الحسن ، تحقيق : ماريا خوسوس بيغيرا ، (الجزائر : 1981) .

الباجي المسعودي ، أبو عبد الله محمد .
الخلاصة النقية في امراء افريقية ، ط2 ، بیکار وشركائه بنهج انبيال ، (تونس ، 1323هـ).

- البكري ، أبو عبيد الله عبد الله بن عبد العزيز (ت. 487هـ / 1094م) .
المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب وهو جزء من كتاب المسالك والممالك نشر دي سلان ، (الجزائر ، 1857) .
- البيذق ، أبو بكر علي الصنهاجي (ت. 555هـ / 1160م) .
اخبار المهدي بن تومرت وابتداء دولة الموحدين اعتنى بإخراجه من الخزانة الاسكريالة وتصحيحه وترجمته : ليفي بروفنسال وبولس كتر الكتبي ، الشركة الفرنسية لمدينة انجي ، (باريس ، 1928) .
- التجاني ، أبو محمد عبد الله بن محمد (ت. بعد 717هـ / 1317م) .
رحلة التجاني ، تحقيق : حسن حسني عبد الوهاب ، المطبعة الرسمية ، (تونس ، 1958) .
- الحموي ، شهاب الدين ياقوت (ت. 626هـ / 1228م) .
معجم البلدان ، قدم له : محمد المرعشلي ، طبعة جديدة منقحة ومصححة ، دار احياء التراث العربي ، (بيروت ، 1979) .
- الحميري ، أبو عبد الله محمد بن محمد (ت. 900هـ / 1494م) .
الروض المعطار في خبر الأقطار (معجم جغرافي مع سرد تاريخي) ، تحقيق : احسان عباس ، دار العلم للملايين ، (بيروت ، 1975) .
- الزركشي ، أبو عبد الله إبراهيم (ت. 894هـ / 1488م) .
تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية ، تحقيق وتعليق : محمد مازور ، ط4 ، المكتبة العتيقة ، (تونس ، 1966) .
- المراكشي ، أبو محمد عبد الواحد (ت. 647هـ / 1249م) .
المعجب في تلخيص اخبار المغرب ، شرحه واعتنى به صلاح الدين الهواري ، ط1 ، (بيروت ، 2006) .
- مؤلف مجهول ، اندلسي من اهل القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي .
الاستبصار في عجائب الامصار ، تحقيق : سعد زغلول عبد الحميد ، (بغداد : 1986) .
- الناصرى ، أبو العباس احمد بن خالد السلوي (ت. 1315هـ / 1897م) .
الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ، تحقيق : ولدي المؤلف جعفر الناصري ومحمد الناصري ، مطبعة دار الكتاب ، (الدار البيضاء ، 1954) .
- المراجع العربية والمعرية
برونشفيك ، روبار .
تاريخ افريقية في العهد الحفصي من القرن الثالث عشر الى نهاية القرن الخامس عشر الميلادي ، نقله الى العربية : حمادي الساحلي ، ط1 ، (بيروت : 1988م) .
- الحري ، محمد عيسى .
تاريخ المغرب الإسلامي والاندرلس في العصر المريني ، دار القلم للنشر والتوزيع ، ط2 ، (القاهرة : 1987) .
- الزاوي ، الطاهر احمد .
تاريخ الفتح العربي في ليبيا ، دار التراث العربي ، ط3 ، (ليبيا ، 1963) .
- الزركلي ، خير الدين .
الاعلام (قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين) ، (بيروت : 1979) .
- عبد الوهاب ، حسن حسني .
شهيوات التونسيات ، المطبعة التونسية ، (تونس ، 1336هـ) .
- علي ، جمعة محمد .
المكاييل والموازين الشرعية ، القدس للنشر والاعلان ، ط2 ، (القاهرة : 2001) .
- عنان ، محمد عبد الله .
عصر المرابطين والموحدين في الاندرلس والمغرب ، ط1 ، (القاهرة ، 1964) .



المطوي ، محمد العروسي .
السلطنة الحفصية تاريخها السياسي ودورها في المغرب الإسلامي ، دار الغربي الإسلامي ، (بيروت :
1986) .
الدوريات

ريحاب، محمود إبراهيم، اثر الزواج السياسي في سياسية سلاطين الدولة الحفصية، مجلة الدراسات
التاريخية والحضارية المصرية، العدد 12، ج3، ابريل 2022.
مسعود، احمد مسعود، الأثر الاجتماعي للهجرات الاندلسية الى افريقية الحفصية حتى القرن السابع
والثامن الهجري- الثالث عشر والرابع عشر الميلادي، مجلة الاكاديمية للعلوم الإنسانية والاجتماعية،
العدد 23، ديسمبر 2022.